

هدي القرآن الكريم في السمو بالنفس الإنسانية

سورة الحجرات أنموذجاً

إعداد الدكتورة

منال بنت عبد العزيز المالك

أستـــاذ التفسـير المساعـد ـ قسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب ـ جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

المملكة العربية السعودية




بسم الله الرحمن الرحيم

هدي القرآن الكريم في السمو بالنفس الإنسانية - سورة الحجرات أنموذجاً

منال بنت عبد العزيز المالك

تخصص التفسير وعلوم القرآن، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: khalid.m123@hotmail.com

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرف على ماهية السمو والنفس الإنسانية، وأهمية السمو بالنفس في علاقة الإنسان مع ربه ومع نبيه صلى الله عليه وسلم ومع الناس، والتعرف على المعوقات التي تحول بين النفس وسموها، وكيف عالجها الإسلام. وقد سلكت فيه المنهج الاستقرائي الاستنباطي مع الالتزام بأصول البحث العلمي. ومما توصلت إليه من هدي القرآن الكريم في السمو من خلال دراسة سورة الحجرات، أننا مع قصرها وقلة عدد آياتها نلمس سمو المنهج القرآني في سياسة النفوس وتربيتها وإصلاحها بعبارات تلين القلوب القاسية وترد النفوس الجامحة.

وقد تربى في ضوئها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حيث نهتهم عن التقدم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ورفع أصواتهم فوق صوت النبي عليه الصلاة والسلام، وأمرتهم بالصبر والتثبت والإصلاح بين الناس والعدل والابتعاد عن السخرية وسوء الظن، وبيَّنت أن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك أو تمس بأي حال.

أما أبرز التوصيات فتتمثل في ضرورة التزود بالعلم الشرعي وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهو السبيل للتقوى. وتربية الأبناء على العناية بتوجيهات القرآن الكريم وهداياته، ومحاسبة النفس ومخالفتها والإنكار عليها؛ لأنها أمَّارة بالسوء. والمحافظة على حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات.، تطهير النفس من الأخلاق الرذيلة، وتحليتها بالأخلاق الحميدة.

الكلمات المفتاحية: هدي القرآن الكريم، السمو، النفس الإنسانية، الحجرات.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الإعجاز، معجز، أوجه، التأصيل.

The Guidance of the Holy Qur'an towards Promoting the Human Psyche (Surat Al- Hujirat as a Model)

By: Manal Bint Abdulaziz Al-malek
Majored in Interpretation and Qur'anic Sciences
Department of Islamic Studies
Faculty of Arts
Princess Nourah Bint Abdulrahman University
Kingdom of Saudi Arabia
E-mail: khalid.m123@hotmail.com

Abstract

The objective of this research is to identify the essence of promoting the human psyche and its importance regarding the relationship in between the human being, his God and the His messenger, Peace be upon him, and the other people. The research is also keen on recognizing the obstacles that prevent the human psyche from promotion and how they are tackled by Islam. Hence, the research applies the inductive and deductive approaches complying with the basic principles of the scientific research. Tracing the guidance of the Holy Qur'an throughout Surat Al- Hujirat, despite its small number of verses, one can easily touch the supreme approach of the Holy Qur'an to bring up, promote and reform the human psyche in phrases which has a powerful meaning that could influence the ruthless hearts and the impetuous psyche. The companions of prophet Muhammad peace be upon them were brought up in accordance with this guidance as it forbids leading ahead of Allah and His messenger peace upon him or raising their voices louder than that of the prophet peace be upon him. The guidance of the Holy Qur'an has also encouraged the companions of prophet Muhammad to be patient, make sure as well as mending relationships between people, seek justice, keep away from irony or mistrust. It has also highlighted the fact that people are all free, consecrated and dignified. These rights can never be violated in any circumstance. One of the most outstanding recommendations of this research is the necessity of acquiring juristic science, obeying the orders of Allah and His messenger which constitute an entrance to piety, bringing up children in accordance with the orders and guidance of the Holy Qur'an. Besides, there should be an examination of conscience, disobeying its temptation because they always incite evil. One should also preserve the inviolable selves, homes, secrets and the private parts. In conclusion, the psyche should be purified from vice and seek, in turn, good manners.

Key words: guidance of the Holy Qur'an, supremacy, human psyche, Hujirat

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ووفقنا للإيمان، وأكرمنا ببعثة خير الأنام محمد ﷺ الذي أرسله المولى سبحانه بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فإن الإسلام نظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض، وأكرم مخلوقاته فيها، قائم عليها، يسخرها لمنفعته، ويعمرها لاستمرار وجوده جيلاً بعد جيل، وخُص بالطيبات، ومُيز بالفضائل، وأغدقت عليه النعم والآلاء، وسُخرت له العديد من المخلوقات.

كما أن الإسلام أمعن في الاهتمام بنفس الإنسان البشرية، فعظم من شأنها وقيمتها، واهتم بتزكيتها وترفعها من كل ما يؤدي بها إلى معصية خالقها، وذلك أن طبيعة النفس البشرية تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة والراحة والسلامة والترف والدعة، وسائر أمراض القلب كما هو مبين في كثير من النصوص، لذلك كان النبي ﷺ يستعيد من شرها كثيراً، حيث جاء في خطبة الحاجة قوله ﷺ: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا)[(١)].

ومن بدائع قدرة الله سبحانه لخلق هذه النفس أن جعلها تلين وتقسو، وتفرح وتأسى، وتصبر وتجزع، وترتدع وتكابر، وتحس وتتبلد، وتأمن وترهب، وفيها دقائق وأعماق، ولها أحوال وتقلبات، فإذا أمسك الإنسان بزمام نفسه ووجهها إلى طريق الخير فقد نال السعادة والفوز والفلاح، وإذا أتبع نفسه هواها فقد خاب وخسر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. وجعله مخيراً في سلوك الطريق المستقيم الذي يسمو بالنفس ويرتقي بها، أو الطريق المظلم الذي يهين النفس وينحط بالجسد، حيث بين له

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٩٣)، كتاب الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة من حديث عبد الله بن عباس رقم (٨٦٨).

الهدى من الضـلال، والرشـد من الغي كما قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]. وكرمه تعالى ولم يدعه يتخبط في هذه الحياة بلا منهج ولا دليل، وإنما أنزل عليه القرآن الكريم، وجعل فيه حقائق تفتح للقلب آفاقـًا عالية، وآماداً بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة، واشـتمل على كثير من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، فهو النور المبدد لظلمات الحياة، والهدى العاصـم من كل ضـلال، والروح الذي تحيا به النفوس الحياة الطيبة، والشـفاء الكامل لكل ما تعانيه الأمة من أمراض، ولما علم العلماء فضـل هذا الكتاب المبين أوقفوا حياتهم في تعلمه، والبحث في معانيه وهديه، حتى كثرت المؤلفات، وتنوعت وتعددت بين من ألف في معاني جمله وآياته، ومن دون في تقرير أحكامه، ومن بحث في أوجه إعجازه.

ولما كان المقصـد الأول من نزول القرآن هداية العالمين لما يصـلحهم في الدارين، وكانت جهود العلماء والباحثين خادمة للوصول لهديه، رأيت أن أشارك في الكتابة بموضوع من موضوعات هداياته، إذ أنه باب واسع ومجال مفتوح للبحث والعطاء، والدراسة والنماء، وقد وقع اختياري على البحث في شيء يسمو بالنفس الإنسانية، وكان ذلك في سورة الحجرات، حيث أشادت آياتها بمكارم الأخلاق وفضـائل الأعمال، ونهت عن رذائل الأخلاق وسـيء الأعمال، وأمرت بطاعة الله ورسـوله ﷺ، وحذرت من مخالفة أوامرهما.

ومن هنا جاء عنوان هذه الدراسة تحت مسمى: (**هدي القرآن الكريم في السمو بالنفس الإنسانية.- سورة الحجرات أنموذجاً -**).

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١ - الإسهام في خدمة كتاب الله تعالى والبحث في معانيه.

٢ - الحاجة الملحة لإبراز المنهج الإسلامي في السمو بالنفس الإنسانية بصورته المشرقة المستقاة من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

٣ - أن المسلم إذا تربى في مدرسة سورة الحجرات يتقي الله في تعامله مع كل الناس.

أسئلة البحث ومشكلاته :

١ - ما مفهوم السمو والنفس الإنسانية؟

٢ - ما أهمية تحقيق السمو في علاقة الإنسان مع ربه، ونبيه ﷺ، وعلاقته مع الناس؟

٣ - ما المعوقات التي تحول بين النفس وبين السمو وكيف عالجها الإسلام؟

الهدف من البحث :

- التعرف على ماهية السمو والنفس الإنسانية، وأهمية السمو بالنفس في علاقة الإنسان مع ربه ونبيه ﷺوعلاقته مع الناس.

- التعرف على المعوقات التي تمنع النفس من سموها، وكيف عالجها الإسلام.

منهج البحث :

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي الاستنباطي، بحيث استوفت الدراسة كل أدب ورد في سورة الحجرات يسمو بالنفس الإنسانية بصورة شاملة شافية، مع دعمها بما يدل عليها من الكتاب والسنة النبوية وأقوال العلماء الموثوقين، ومعرفة أهمية تحقيقها وآثارها ومعوقاتها وعلاجها.

الدراسات السابقة :

على الرغم من أن سورة الحجرات قد حظيت بدراسات تفسيرية تحليلية وموضوعية، إلا أنه لا توجد - على حد ما وصل إليه بحثي - دراسات علمية سابقة تفردت بعرض هذا الموضوع على نحو تفصيلي.

خطة البحث :

ينقسم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع.

المقدمة: وفيها أهمية البحث وأسباب اختياره، وهدف البحث، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف السمو والنفس الإنسانية.

المطلب الثاني: أهمية تحقيق السمو بالنفس الإنسانية وآثاره.

المبحث الأول: بين يدي سورة الحجرات.

المبحث الثاني: السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع ربه.

المبحث الثالث: السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع نبيه ﷺ.

المبحث الرابع: السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع الناس.

المبحث الخامس: معوقات السمو بالنفس الإنسانية، وكيف عالجها الإسلام.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث العلمية وتوصياته.

فهرس المصادر والمراجع.

وفي الختام أحمد الله تعالى على تيسير إتمام هذا البحث، وأسأله سبحانه أن يمنّ علينا بفهم كتابه العزيز واتباع أحكامه وهداياته إنه قريب مجيب.

التمهيـد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف السمو والنفس الإنسانية

أولاً: تعريف السمو:

لغة: سما يسمو سُمواً، فهو سام، والمفعول مَسْمُّو إليه، وسما الطائر: علا وارتفع في السماء. وسما بأفكاره: علا وارتفع.

وكل سقف سماء، وقيل للسحاب سماء لعلوه وارتفاعه، فكل شيء ارتفع فقد سما يسمو، وصاحب السمو لقب كل ملك أو أمير، بمعنى صاحب المقام الرفيع، وفي السمو معنى العظمة سواء كانت جسدية أو أخلاقية أو فكرية أو جمالية(١).

اصطلاحاً: السمو: العلو والارتفاع، وسماء كل شيء أعلاه، ومنه سمت همته إلى المعالي إذا طلب العز والشرف(٢).

ثانياً: تعريف النفس:

لغة: تأتي النفس في كلام العرب على عدة أوجه، منها:

- أن النفس بمعنى الروح، يقال: خرجت نفس فلان: أي روحه، ومنه قولهم: فاضت نفسه: أي خرجت روحه.

- أن النفس بمعنى الدم، يقال: سالت نفسه، وذلك أنه إذا فُقد الدم من بدن الإنسان فقد نفسه.

---

(١) ينظر: الغريبين في القرآن والحديث للهروي (٣/ ٩٣٦)، لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٩٧)، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون (١/ ٤٥٢).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٤٧، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٥/ ٢٠٨)، التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد المناوي ص ١٩٧.

- أن النفس بمعنى حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلان نفسه، أي ذاته وجملته، وأهلك نفسه، أي: أوقع الإهلاك بذاته كلها.

وجمع النفس: أنفس ونفوس، يذكرونه لأنهم يريدون به الإنسان(١).

اصطلاحاً: عُرفت النفس بأنها: "الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، فهي جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه من ظاهر البدن وباطنه، وأما وقت النوم فينقطع ضوؤه عن ظاهره دون باطنه"(٢).

- وعند علماء النفس المعاصرين: هي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة، إدراكية أو حركية أو فكرية أو انفعالية أو أخلاقية، سواء كان ذلك على مستوى الواقع أو مستوى الوهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلهما وتبادلهما التأثير المستمر والتأثر، مكونين معًا وحدة متميزة نطلق عليها لفظ "شخصية" تميز الفرد عن غيره من الناس(٣).

* وقد استخدم القرآن الكريم لفظة "نفس" في عدة مواضع، ويمكن إجمال معانيها فيما يلي:

١ - النفس بمعنى الروح، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢]، قال بعض السلف: "تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى.

---

(١) ينظر: معجم تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٣٦٢٩)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٦٠)، الصحاح للجوهري (٣/ ٩٨٤).

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٣١٢، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٢٧.

(٣) موسوعة علم النفس والتحليل النفسي لفرج عبد القادر طه، ص ٨٥٢.

٢ - النفس بمعنى الإنسان، أي الشخصية البشرية بكاملها جسداً وروحًا، وهذا كثير وغالب في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [البقرة: ٤٨].

٣ - النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان، ويدخل فيها "القلب" و"العقل"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾[النمل: ١٤]، أي أيقنتها قلوبهم وعلموا علمًا يقينًا أنها من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها[١].

٤ - النفس بمعنى قوى الخير والشر في الإنسان، ومن خصائصها أنها قادرة على إدراك الخير والشر والتمييز بينهما، والاستعداد لهما، قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ [الشمس: ٧-٨]، وقال: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: ١٠] أي بيَّنَّا له الطريقين، طريق الخير وطريق الشر، فمن استخدمها في طريق الخير وغلَّبها على الشر فقد فاز وأفلح، ومن استخدمها في طريق الشر وغلَّبها على الخير فقد خاب وخسر[٢].

ومن هنا نلاحظ أن القرآن الكريم يشخص النفس، ويجعلها الكائن الذي يمثل الإنسان المسؤول المحاسب، وأنها بالفهم الذي يستريح إليه العقل، هي شيء غير الروح وغير العقل، وحسبنا أن نؤمن بأن الروح من أمر الله، فلا سبيل إلى الكشف عنها كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]، بل النفس هي الذات الإنسانية التي تتخلق من التقاء الروح بالجسد، إنها التركيبة التي تخلق في الإنسان ذاتية يُعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومدركاته، وأنها جهاز خفي عامل في الإنسان، ولهذا كانت في كثير من الآيات موضع الخطاب من الله للإنسان العاقل المكلف الذي يتوقع منه الخير والشر، والهدى والضلال، وصارت موضع الحساب والثواب والعقاب[٣].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٩)، (٩/ ٥٠٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٥٩)، (٣/ ٣٩٤).

(٢) ينظر: حقيقة النفس في القرآن الكريم لصلاح مفتاح، شبكة الألوكة.

(٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب (١٢/ ١٦٦).

* ولا تخلو هذه النفس من أن تتصف بصفات ثلاث:

الأولى: النفس المطمئنة: هي المؤمنة الموقنة الراضية، رضيت بما أوتيت ورضـــي الله عنها، فحق لها أن يخاطبها رب العالمين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠ ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، هي نفس انخلعت عن صــفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة، تشـعر بالاسـتقرار والسـعادة، لا يسـتفزها خوف ولا حزن؛ لأنها سـكنت إلى الله واطمأنت بذكره ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ [الرعد: ٢٨].

الثانية: النفس اللوامة: هي نفس متيقظة تقية خائفة متوجسة، تندم بعد ارتكاب المعاصي والذنوب فتلوم نفســها وتحاســبها، وهذه كريمة على الله، لذلك أقســم بها في القرآن الكريم ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [القيامة:٢]، وعلى هذا تكون النفس اللوامة هي "اللائمة"، قال الفراء: "ليس من نفس محسـنة أو مسـيئة إلا وهي تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه لو كان زاد إحسانًا، والمسيء يلوم نفسه لو ارعوى عن إساءته"[(١)].

الثالثة: النفس الأمَّارة: هي التي تأمر الإنسـان بفعل السيئات، وقد أخبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣ ﴾ [يوســف: ٥٣]، فهي تأمر صـاحبها باللذات والشـهوات، وبفعل كل رذيلة، تسيطر عليها الدوافع الغريزية، وتوجه صـاحبها بما تهواه من شــهوات، وأخبر الله عنها بصــيغة المبالغة حيث هي أمَّارة وليســت آمرة، لكثرة ما تأمر بالسوء، ولأن ميلها للمطامع والشهوات صار عادة فيها، إلا إن ﷻ وهداها رشدها[(٢)].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٠٨)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/ ٨٤).

(٢) ينظر: الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء لابن القيم ص ٢٩٤، حقيقة النفس في القرآن الكريم ومعانيها للشيخ صلاح مفتاح، شبكة الألوكة.

المطلب الثاني: أهمية تحقيق السمو بالنفس الإنسانية وآثاره

كما أن الإنسان يهتم بجسده، فيغذيه بما يوجب نموه وسلامته، ويقيه من الآفات والأمراض، ويبادر إلى البحث عن العلاج عند شعوره بالآلام أو الأعراض التي تصاب بها الأبدان، فكذلك النفس الإنسانية بحاجة إلى تغذية دائمة ورعاية ومتابعة، للازدياد من الخير، كما يزداد البدن من الطاقات والمعارف، فلذلك احتاج الإنسان إلى أن يراقب تطورات نفسه، ويعلم أنها وعاء إيمانه، ولا بد من العمل على تنمية هذا الإيمان وزيادته عن طريق السمو بنفسه وتهذيبها وتربيتها.

وتظهر أهمية تحقيق السمو بالنفس الإنسانية بملاحظة الأمور التالية:

أولاً: أن الله تعالى جعل من أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام مساعدة الناس على بناء أنفسهم، بتعليمهم مكارم الأخلاق وفضائلها، وتربيتهم عليها وإرشادهم إلى طرق كبح ميولهم وشهواتهم المخالفة للعقل والشرع، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢].

ثانياً: أن الآيات ذات المضمون الأخلاقي في القرآن الكريم أكثر من آيات الأحكام والتشريع، بل حتى القصص القرآنية ذات أهداف أخلاقية واضحة كما أن الثواب والعقاب اللذان يترتبان على الأمور الأخلاقية ليسا بأقل من الثواب والعقاب اللذان يترتبان على بقية الأمور والأعمال.

ثالثاً: أن أطول قسم في القرآن الكريم جاء متحدثاً عن النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ١ - ١٠]، فأن يقسم الله تعالى بالنفس بعد هذه الأقسام كلها، إنما دليل على أهميتها وخطرها، بل ولفت الانتباه إليها بدليل أنه تعالى قد حكم بفوز من طهر نفسه بتحليتها بالفضائل، وتخليتها عن الرذائل، وقد خسر من دسَّ نفسه مخفياً إياها في المعاصي والآثام.

رابعاً: أن النفس من أشـــد أعداء الإنســـان الداخليين؛ لأنها تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من شرها كثيراً، واهتمامه صـــلوات ربي وســـلامه عليه بها في دعائه تنبيه لنا لكي ننظر فيها، فكان من دعائه ﷺ: (اللهم ألهمني رشـــدي، وأعذني من شـــر نفســـي)[١]، (يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك)[٢]، (اللهم آت نفســـي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)[٣]، وغيرها من الأدعية الثابتة عنه ‰ .

قال ابن القيم –رحمه الله–: "وقد اتفق الســـالكون إلى الله على اختلاف طرقهم، وتباين ســـلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها"[٤].

خامساً: امتثال لأمر الله ﷻ وطاعة لرسوله ﷺ، فقد أمر الله سبحانه عباده بالتحلي بمكارم الأخلاق فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وحث النبي ﷺ على حسن الخلق والتمسك به، وعده من كمال الإيمان، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق[٥].

* إن لســـمو النفس الإنســـانية وترفعها عن المعاصـــي والرذائل، وتحليها بمكارم الأخلاق آثار على الفرد والمجتمع، وهذه الآثار لا تقتصر على الحياة الدنيا، بل تمتد للدار الآخرة، ومنها:

١ – نيل رضـا ومحبة الله ﷻ الذي هو غاية كل مسـلم، ومحبة الرسـول ﷺ والقرب منه يوم القيامة

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٥/ ٣٩٧)، كتاب الدعوات، برقم [٣٤٨٣]، وقال حديث غريب.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٦)، كتاب النعوت، باب قوله (ولتصنع على عيني) برقم [٧٦٩٠].

(٣) رواه مســـلم في صـــحيحه (٤/ ٨٨)، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شـــر ما عمل ومن شـــر ما لم يعمل، برقم [٢٧٢٢].

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ٧٥).

(٥) ينظر: قل هو من عند أنفسكم، لعبد العزيز الجليل، شبكة الألوكة.

كما جاء في الحديث: (إن أحبكم إلي أحسنكم أخلاقًا)(١).

٢ - كمال الإيمان، فإيمان المسلم يكتمل بالخلق الحسن، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)(٢).

٣ - النجاة يوم القيامة ودخول الجنة، كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

٤ - محبة الخير للغير، وكسب قلوب الناس وودهم، وتحقيق الأمان والطمأنينة للمجتمع بأكمله ليصبح كله كالجسد الواحد، ولا شك أن صلاح مجتمع من المجتمعات يكون بصلاح أفراده، فإذا انتشرت المعاصي والرذائل في المجتمع، فهي سبب لعقاب الله ﷻ بالجوع أو الخوف والبغض والكراهية، كما كانت حال مجتمعات الأمم السابقة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٨)، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عبد الله بن مسعود، برقم [٣٧٥٩].

(٢) رواه الترمذي في السنن (٣/ ٤٥٨)، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم [١١٦٢]، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٥٩٤): حسن صحيح.

المبحث الأول

بين يدي سورة الحجرات

سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير سورة "الحجرات" وليس لها اسم غيره، ووجه تسـميتها بذلك؛ أن الله تعالى ذكر فيها بيوت النبي ﷺ وحرمة هذه البيوت، وبيوته كما هو معروف هي الحجرات التي كانت تسكن فيها أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أجمعين.

وهي السورة التاسعة والأربعون من سور القرآن الكريم، وعدد آياتها ثماني عشرة آية بالإجماع.

وهي مدنية إجماعـًا، وقد تميزت بميزات السـور المدنية من طول الآيات، والنداء بالإيمان، وذكر الأحكام العملية، وغير ذلك مما هو من خصـائص القرآن المدني(١)، وذكر ابن كثير أنها نزلت في السـنة التاسعة من الهجرة، فهي مدنية(٢)، وحكى السيوطي قولاً شاذاً أنها مكية، ولا يُعرف قائل هذا القول(٣).

ولم أجد فيما اطلعت عليه من كتب التفسير وعلوم القرآن شيء صحيح خاص في فضلها.

سبب نزولها: ورد في سبب نزول آياتها أقوال كثيرة، وسأكتفي بذكر ما ثبت صحته، منها:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الحجرات: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].

نزلتا في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في قصـة بني تميم. فعن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمِّر القعقاع بن معبد(٤)، وقال عمر رضي الله عنه:

---

(١) ينظر: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني ص ٢٣٠، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ٢١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢١٨).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٢).

(٤) القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي، من سـادات بني تميم، شـهد مع الرسـول ﷺ حنينـًا، يقال له: تيار الفرات لسخائه. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٥/ ٣٤٤).

بل أمِّر الأقرع بن حابس[(١)]، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصـــواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[(٢)] [الحجرات: ٥].

وفي رواية أخرى للبخاري عن ابن أبي مليكة قال: "كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رفعا أصـــواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشـــار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشـــار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اســـمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، وارتفعت أصـــواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[(٣)].

- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦].

هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما قال جمهور المفسرين، ومن أحسن طرقه كما قال ابن كثير ما رواه الإمام أحمد في مســـنده من رواية الحارث بن ضـــرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رســـول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإســـلام وأداء الزكاة، فمن اســـتجاب لي جمعت زكاته،

(١) الأقرع بن حابس بن عقال التميمي، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم، وقد حسن إسلامه، قتل في اليرموك. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/ ١٠١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٧)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤] برقم [٤٨٤٧].

(٣) صـــحيح البخاري (٦/ ١٣٧)، كتاب تفســـير القرآن، بـاب قولـه تعـالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢] برقم [٤٨٤٥].

ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٠١، ٤٠٢، الاستيعاب في بيان الأسباب لسليم الهلالي ومحمد آل نصر (٣/ ٢٥٣).

فيرســل إليَّ رســول الله ﷺ رســولاً لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول، فلم يأته، فظنَّ الحارث أنه قد حدث فيه ســخطة من الله ﷻ ورســوله، فدعا بســروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يُرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا، فنأتي رسول الله ﷺ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق، فَرِق[1]، فرجع، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة، فأراد قتلي، فضــرب رســول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصــحابه إذ استقبل البعث وفصل من المدينة، لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم، إلى مَن بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رســول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله! قال: "والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بتة، ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟" قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلى حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورســولـه، قـال: فنزلـت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ [الحجرات: ٦][2].

قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾[الحجرات: ٩].

روى أنس بن مالك ﷺ قال: "قيل لرســول الله ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبيّ، فركب حماراً وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل

(١) الفرق بالتحريك: الخوف والفزع. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ٤٣٨).

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل (٣٠/ ٤٠٣)، وقال محققو المسند: "حسن بشواهده دون قصة إسلام الحارث بن ضرار"، أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٠٧، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٢٠).

واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت فيهم ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾ (١).

- قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤].

جمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمة حين قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، وامتنوا بإسلامهم وقالوا: آمنا، وكانوا يمنون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك، فنزلت الآية(٢).

أما عن صلة السورة بما قبلها: فإن المتأمل لافتتاح كل من سورتي الفتح والحجرات يلحظ تشابه افتتاح كل منهما، فكل منهما تتحدث عن رسول الله ﷺ في مقامه العالي، وشرف مرتبته، وقد أشير في سورة الفتح إلى ما وقع من بعض الصحابة مع النبي ﷺ في صلح الحديبية من عدم الرضا بفعل النبي ﷺ مع المشركين، وعدم متابعة أمره بالذبح، فجاءت سورة الحجرات لبيان لوازم الإيمان، وهو أنه لا يصح لعبد مؤمن أن يسبقه ﷺ برأي، ولا يتقدم عليه في حكم، وكذلك يجب أن يكون مجلسه مميزاً عن كل المجالس، فلا صخب ولا ضجر ولا ارتفاع لصوت ولا جهر بحديث في حضرته، فهذه السورة امتداد لسورة الفتح في بيان لوازم الإيمان، وهذه اللوازم هي الآداب والأخلاق السامية التي تضمنتها سورة الحجرات مع القمة نزولاً إلى العامة(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٨٣)، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، برقم [٢٦٩١]، ومسلم في صحيحه (٣/ ٤٢٤) كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المناقين برقم [١٧٩٩]. وينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٠٨، الاستيعاب في بيان الأسباب لسليم الهلالي ومحمد آل نصر (٣/ ٢٧٨).

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٣٩٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٣٠).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٨/ ٣٥١)، التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٣/ ٤٣٢).

الوحدة الموضوعية للسورة:

تتناول ســورة الحجرات موضــوعات كثيرة ومتفرقة، بين أولها وآخرها ترابط وتجانس وتلاحم، حيث تندرج كلها تحت موضوع التقوى والإيمان، سواء كان ذلك تصريحـًا أو تلميحـًا، فما من مقطع من مقاطعها إلا وهو يعالج قضية أساسية من قضايا المجتمع المسلم، إنها سورة تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضـمنة القواعد والأصـول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، فتكفل قيامه أولاً، وصــيانته أخيراً، عالم له أدب مع الله، ومع رسـوله ﷺ، وأدب مع نفســه ومع غيره. وقد دعت آياتها لإزالة جميع العوائق التي تحول بين صــفاء القلوب ونقائها، كالسخرية واللمز، والتنابز والغيبة والتجسس، بل دعت إلى تخليص القلوب وتطهيرها مما قد يشوبها في داخلها، فيفسد تقواها، كسوء الظن والتفاخر والمنة على الله.

ولعل هذه السـورة هي السـورة الوحيدة من سـور القرآن الكريم التي تكاد تسـتقل بمراعاة المبادئ والآداب التي يجب أن يتحلى بها المسلم مع الله وخلقه، بل لم يأت أي مقطع لبيان حكم شرعي ابتداءً كحكم الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج أو غيرها مما نجده في آيات سور كثيرة.

هذه المبادئ الإنسـانية التي وضـعتها هذه السـورة العظيمة لو وضـعها كل إنسـان نصب عينية لسـاد الحب والخير بين أهل الأرض، فهي دعوة للجميع أن يسيروا على صراط الإنسانية(١).

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (١/ ٤٣٥)، الموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٨/ ٢٢١).

المبحث الثاني

السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع ربه ﷻ

إن ارتباط النفس البشرية بخالقها ارتباط فطري، قبل أن يكون هناك وجود للبشرية، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[الأعراف: ١٧٢]، أي أن الله قد قررهم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا بذلك، فالله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم، ولكن الفطرة قد تتغير وتتبدل بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة، ثم إن النفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية محبة له، تعبده لا تشرك به شيئًا، ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل.

ولا شيء أعظم من تعلق قلب المؤمن بربه ﷻ، فلا إيمان ولا عبودية إلا بتعلق العباد بالله من جهة ربوبيته وإلاهيته، ويتضمن ذلك معنى الافتقار والحاجة إليه سبحانه، فيحصل الخشوع والخضوع والتوكل والغنى بالله سبحانه، والمتعلق بالله تعالى تتجلى له عظمة الله وقدرته، ويشعر بآلاء الله ونعمه وكرمه وعنايته، ويفرج الله ضيقه، ويوسع عليه مخارجه، ويحفظه ويتولاه، والمحروم من تعلق بغيره تعالى، واتبع هواه، وضل عن سبيل الله وعبد غيره.

واهتمام الإنسان بعلاقته مع الله، أهم وأولى من اهتمامه بعلاقته مع الناس؛ لأن العلاقات الأخرى لا يمكن أن تكون ثمارها صالحة، إلا إذا صلحت العلاقة مع الأصل - وهو الله - فإذا صلحت كانت أموره ميسرة، ودعواته مستجابة، وأحواله صالحة، ومحبته بين الناس كبيرة، ومن عرف الله حقًا كفاه عن كل ما سواه[١].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٢٠٥)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٣٠٨، الإسلام والسمو الروحي للإنسان، شبكة الألوكة.

* ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد ورد في سورة الحجرات بعض الآداب التي تسمو بنفس الإنسان وترتقي بها في علاقتها مع خالقها ﷻ، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ [الحجرات: ١].

من أقوال المفسرين في هذه الآية قول ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال الضحاك: لا تقضوا امرأً دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

فالمقصود بالآية: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم ورسوله صلى الله عليه وسلم، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، ويدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: (بم تحكم؟) قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: (فإن لم تجد؟) قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: (فإن لم تجد؟) قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: (الحمد لله الذي وفَّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله)(١). فالغرض منه أنه أخَّر رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقدم بين يدي الله ورسوله.

ويشبه ما جاء في هذه الآية ويؤكده قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فمن صور التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ التحاكم إلى غير شرع الله، وسن القوانين والأنظمة وسائر التشريعات التي

(١) رواه الترمذي في سننه (٣/ ٩)، كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، برقم [١٣٢٧]، قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣٣٧): "الحديث مدون في الصحاح متفق على صحته لا يتطرق إليه التأويل".
ورواه أبو داود في سننه (٥/ ٤٤٤)، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، برقم [٣٥٩٢].

تتناقض مع الشرع، فكل ما يضعه البشر من دساتير وقوانين وأنظمة وتعليمات وأحكام تخالف الشريعة الإسلامية هو تقدم على الله وعلى رسوله ﷺ، سواء صدر ذلك من الحكام أو العلماء أو الفقهاء؛ لأن الحاكمية لله وحده سبحانه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠][(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ تكرر النداء بالتقوى في هذه السورة خمس مرات، وهو أدب يسمو بعلاقة الإنسان بخالقه ﷻ؛ لأنه يقوم على خشيته ومراقبته وتعظيم أمره، والتقوى تهيء القلب أن يأخذ الحكمة ويحرص عليها، ويتلقى الأمر ويعمل به، ويستجيب للحق، ولو تعارض مع هواه وخالف رغباته، وهي زاد القلوب والأرواح، وأوثق الأسباب وأرجى العدة والعتاد، لأنها تفوق الأسباب المادية وتحكم عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾[الحجرات: ١٤]، هذا أدب آخر يسمو بعلاقة الإنسان بربه ﷻ، فطاعة الله بتنفيذ أحكامه والتزام شرعه وإحلال حلاله وتحريم حرامه، والكف عن الأذى والمعاصي بنية صادقة مخلصة، وطاعة الرسول ﷺ وحبه والأخذ بكل ما جاء به، والكف عن كل ما نهى عنه، تستوجب الثواب الجزيل عند الله، إضافة إلى أن طاعتهما يعود نفعها ويجني ثمرتها الإنسان نفسه، فالله هو الغني الذي لا تنفعه طاعة أحد، ولا تضره معصية أحد، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥][(٣)].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٣٧٧)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢١٦).

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٣٧٨].

(٣) ينظر: المرجع السابق (١١/ ٤٥١).

المبحث الثالث

السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع نبيه ﷺ

إن اتباع الرسول ﷺ، والعمل بهديه يصل بالإنسان لدرجة عالية من السمو والسكينة، والله تعالى لا يأمر البشرية كافة باتباع النبي الخاتم المبعوث للناس كافة بالرسالة الخاتمة، التي ارتضاها دينًا لهم، إلا لأنه إليه المنتهى في السمو الإنساني، وغاية الكمال في الخلق والأدب الراقي الذي دلت عليه شمائله، فاصطفاه من خلقه وأنعم عليه بالقرب منه، بما لم يستطع ملك مقرب ولا نبي مرسل أن يدنو دنوه.

ومن واجبنا تجاهه ﷺ محبته وطاعته والاقتداء به، لما خصه الله من كريم الخصال، وعظيم الشمائل، وما أجراه الله على يديه من صنوف الخير والبركات لأمته، وما امتن الله على العباد ببعثته ورسالته.

وقد ذكرت في المبحث السابق ما يفيد النهي عن التقدم عليه ﷺ بقول أو فعل، ووجوب طاعته فيما يأمر وينهى، فلا حاجة لإعادته هنا.

- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات: ٢ -٥].

بعدما تحدثت الآية الأولى عن الأصل العام الذي يضبط حياة المسلم ويوضح مرجعه ومصدره في التلقي، جاءت هذه الآيات لتفصل وتبين أنه لا بد من التزام الأدب مع من يُتلقى عنه، وما يجب للنبي ﷺ من أدب في الحديث معه والخطاب له، وما ينبغي أن يكون له من التوقير في القلوب، توقيراً ينعكس على لغة حديثهم ونبراته ودرجة ارتفاع أصواتهم، فلا بد أن تكون أصواتهم قاصرة عن الحد الذ يبلغه صوته، وخطابهم لرسول الله ﷺ يُميز مقامه بينهم، والمنزلة التي خصه الله بها وشرَّفه، فلا يليق أن

ينادوه باسمه مجرداً كما ينادي بعضهم بعضًا، ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[النور: ٦٣]، فلا يقولوا: يامحمد؛ لأن ذلك من الجفاء وسوء الأدب، وله تأثيره السيء في نفوس السامعين أو القراء، بل ينبغي أن ينادوه بما يفيد وصفه بالرسالة أو النبوة، فيقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، لما في ذلك من الدلالة على توقيره واحترامه وإجلاله وهيبته التي تليق بمكانته الرفيعة ﷺ .

هذا وليس الغرض من رفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة بالمخاطب، فإن ذلك كفر، والمخاطبون في هذه الآية مؤمنون، وإنما الغرض هو أن هذا الصوت بهذه الحدة والارتفاع والجهر، غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزيز والتوقير.

ولا يدخل في النهي ارتفاع الصوت ولو بحضرته ﷺ إذا كان لحاجة تدعو إلى ذلك، وليس فيه أذى له ﷺ، فإنه جائز، بل قد يكون صاحبه مأجوراً، كالآذان ورفع الصوت بالتلبية بالحج والعمرة، والجهر بالتكبير أيام التشريق ويوم النحر ويوم عيد الفطر، وأثناء الحرب لإخافة العدو، أو نداء المجاهدين من الصحابة كما أمر الرسول ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب وكان جهوري الصوت ﷺ أن ينادي ويخرج بأعلى صوته يوم حنين[1].

ويلحق بالأدب مع الرسول ﷺ الأدب مع كل ذي منزلة وقدر في الإسلام، ومنهم الأئمة والعلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء، وهم سند هذه الأمة المتصل بينها وبين نبيها ﷺ، وهم أمناء الله على دينه ووحيه، فينبغي التأدب مع الورثة ومع من ورثهم، والإرث هو علم الدين الذي ورثه العلماء عن الأنبياء في حمله ونشره وتعليمه وتطبيقه والصبر عليه وتحمل الأذى في سبيل نشره.

وكره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته، احترامًا لمكانته وإجلالاً له، ولأنه محترم حيًا وفي قبره ‰ [2].

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٥/ ٥٥٦)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (٥/ ١٤٤).

وامتدح الله تعالى الذين يخفضــون أصــواتهم عند الحديث مع الرســول ﷺ أو في مجلســه، إذ إن خفض الصــوت مطلوب شــرعـًا كما قال تعالى على لســان لقمان لابنه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: ١٩]، ولا شــك أن هذا خلق رفيع وإخلاص لا تشــوبه شــائبة، وامتلاء لقلوبهم بالتقوى، ولذلك استحقوا المغفرة من الله والتجاوز عن سيئاتهم وهفواتهم(١).

وبعد أن ذم الله تعالى الذين ينادونه من خارج حجراته بأن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنه يتنافى مع توقيره وإجلاله والمحافظة على هيبته، أرشــدهم إلى الأدب في ذلك، وبين لهم الأولى والأفضــل وهو الصــبر؛ لأن فيه الخيرة والمصــلحة في الدنيا والآخرة، وقد كان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه، فكان إزعاجه والحالة تلك من سوء الأدب(٢).

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٢١٩).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ٢٦٤)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢١٩).

المبحث الرابع

السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع الناس

أقام الإسلام بين الإنسان وأخيه الإنسان علاقة مستقيمة أصيلة، ترقى بالإنسانية إلى العلا، وتعطي للإنسانية معناها الحقيقي، حيث جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية وصايا جامعة كافية، وقواعد وبنود شرعية ثابتة لتنظيم العلاقات بين الناس، ترتقي بهم روحياً وجسدياً، لو تدبروها ووعوها على اختلاف عقائدهم وثقافاتهم ولغاتهم بكل حيادية وإنصاف ما وسعهم إلا أن يتبعوها وينهلوا من سموها وبهائها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

إنها وصايا تسمو بنفس الإنسان في تعاملاته مع غيره، وتبين كمال رسالة الإسلام، حيث جمعت بين الترغيب والترهيب، والنصح والإرشاد والتوجيه، والزجر والوعيد والعقاب، فمن عمل بها فقد سلك سبيل المؤمنين، ومن تركها وعصى الله وأضر بالآخرين بقول أو فعل فقد استحق العقاب من الله تعالى.

وقد جاءت آيات سورة الحجرات لتفي بجزء كبير من هذه الوصايا والقواعد والآداب التي تحكم علاقة الإنسان بالآخرين وتسمو بها، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦].

بعدها بينت الآيات السابقة منهج المؤمن في التلقي عن الله ورسوله ﷺ، وأنه مبني على الاستجابة والتسليم والطاعة، جاءت هذه الآيات والتي تليها مكملة ومتممة لها في ذكر الآداب والأحكام ومقتضيات الإيمان ومستلزماته، إذ على المؤمن أن يكون دقيق حذر، واعٍ متثبِّت من كل ما يُلقى إليه من الأخبار، ممحصاً لها قبل نقلها وإذاعتها، فأمر المؤمنين بالتثبت في خبر الفاسق، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأشار إلى الميزان في ذلك بقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ

مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ ﴾ وأنه العلم والتحقق في الإصـابة وعدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسـمع وكيف ينقل فهو المصيب، ومن كان غير ذلك فمآله الندامة(١).

وقد ذكر كثير من المفسـرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة، ولكن نزولها فيه لا يعطي دليلاً قاطعـًا على الحكم بفسـقه؛ لأنه توهم وظن فأخطأ، ولم يتعمد الكذب، والمخطئ لا يسـمى فاسـقًا، خاصة وأن الفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من ربقة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠]، إلى غير ذلك.

فالآية وإن وردت لسبب خاص فهي عامة لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق، فمن ثبت فسـقه بطل قوله في الأخبار إجماعـًا، لأن الخبر أمانة، والفسـق قرينة تبطلها، والله ﷻ لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة، وإنما أمر بالتبيُّن والتثبُّت.

أما خبر الواحد فإنه يقبل إذا كان عدلاً، وأما مجهول الحال فمن العلماء من قال لا يقبل قوله؛ لاحتمال فسقه، ومنهم من قبل قوله لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال(٢).

ولو تأملنا في حالنا اليوم، ونظرنا في الكم الهائل من الأخبار التي تصـلنا عبر وسـائل التواصـل الاجتماعي، ونظرنا إلى الاختلاف والتباين بين مصـادر هذه الأخبار لأدركنا عظمة هذا الدين، وسـمو ودقة هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن الكريم والسنة الشريفة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى

(١) ينظر: الفتاوى السعدية للسعدي ص ٤٤٥.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازي (١٠/ ٩٧)، البينات في تفسير سورة الحجرات لعبد المجيد البيانوني ص ٩٥.

تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الحجرات: ٩].

قال العلماء: هذه الآية أصل في قتال المسلمين والبغاة منهم، وتوسعوا في بيان أحكام قتالهم، ولا يسع المجال لذكرها هنا(١).

ولما حذر الله المؤمنين في الآية السابقة من نبأ الفاسق، وأن المؤمنين قد يبنون على قوله، فيقودهم ذلك إلى الفتن التي تستعر نارها، ويمتد لهيبها فتفسد الروابط وتهدم المجتمعات، بسبب ما ينشأ من تناقل الأقوال، وقبول الاتهامات بغير تثبت أو تمحيص، وقد يحصل اقتتال بين طائفتين من المؤمنين، جاء الأمر هنا بالإصلاح بينهم إن وقع القتال، مع توجيه المصلحين إلى إقرار العدل والقسط في الإصلاح.

وسواء أكان نزول هذه الآية بسبب حادث معين أم كان تشريعاً لتلافي مثل هذه الحالة، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة المجتمع الإسلامي من الخصام والتفكك والتفرق، فالأصل في علاقة المسلمين فيما بينهم، أن تكون علاقة عميقة سامية تقوم على المودة والحب والرحمة، كما قال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)(٢)، وقال ‰ : (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(٣)، ولا شك أن أخوَّة الدين أقوى وأدوم من أخوَّة النسب، وهذا لا يعني عدم اختلافهم ووقوعهم في الخطأ، فالقرآن الكريم يستبقي لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما، وإن كان القتال نادراً، بدليل أن الآية بدأت بـ "إن" الشرطية، مع اختيار كلمة "طائفة" وهي تستخدم في القرآن لتدل على أنها أقل من الفرقة، كقوله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ومع قلة حصوله بينهم إلا أن

(١) ينظر في ذلك: المغني لابن قدامة (١٢/ ٢٣٧)، مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥/ ٥٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٨)، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، برقم [٢٤٤٢]، ومسلم في صحيحه (٤/ ٩٩٦)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم [٢٥٨٠].

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم برقم [٢٥٨٦].

الآية لم تترك الأمر بدون علاج، بل أمرت المؤمنين أن يوقفوا القتال بالصــلح فيما بينهم، فإن أصــرت إحدى الطائفتين على الاستمرار، فيجب قتال الطائفة الباغية حتى ترضى بالحق(١).

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

جاءت هذه الآيات لتعالج العلاقة الاجتماعية بين المؤمنين معالجة تربوية نفسـية، ليكون مجتمعًا متوادًّا مترابطًا، تســود فيه الأخوة والمحبة، مجتمع يهتدي بهدي القرآن الكريم، له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته وحريته، فهذه الآيات تهتف للمؤمنين بالنداء وتحذرهم من أخطاء قد يقعون فيها تؤثر على وحدة قلوبهم ونفوسـهم، وقد تكون سـببًا للتنافر والتخاصـم ونشـر الحقد والكراهية بينهم، لما فيها من الإهانة والاحتقار وسوء الظن والظلم.

ففي قوله تعالى: ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ ينهى الله عن الســخرية بالناس بقصــد اســتصــغارهم واحتقارهم والتقليل من شـأنهم بأي صـورة كانت، سـواء بالكلام أو بالإشـارة أو بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد بين الله تعالى العلة في ذلك النهي فقال: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ فلربما يكون المستهزَأ به أخلص ضميراً، وأنقى قلبًا، وأرضى عند الله وأحب وأخير من الساخر المستهزئ(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ ينهى الله المؤمنين عن اللمز، وهو الطعن والعيب، كما قال بذلك كثير من المفسرين، وقد أوعد الله الذين يلمزون الناس في قوله: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة: ١]، والهمز يكون بالفعل احتقاراً، واللمز بالقول كما قال تعالى: ﴿ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ ﴾

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٢٣)، التفسير الكبير ومفاتح الغيب للرازي (١٠/ ١٠٤).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٢٣)، أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

[القلم: ١١]، أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة، وعلى هذا فاللمز نوع من السخرية؛ لأن العلة واحدة في الأمرين، وهي الاستصغار والاحتقار، ولعله من باب عطف الخاص على العام.

وفي قوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه، فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩][1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ينهى الله المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب، والنبز هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من الأسماء أو الصفات؛ لأن فيه تعبير وانتقاص له، ولذلك كان من هدي النبي ﷺأن يغير الأسماء والألقاب التي تنتقص بأصحابها ولا تليق بالكرامة الإنسانية.

وأما إن كان الاسم أو اللقب مما يحبه الإنسان فهذا قد رغَّبت به السنة الشريفة؛ لأن من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء إليه، كما فعل النبي ﷺ مع بعض أصحابه، وذلك من الأدب الحسن وزيادة الألفة بين القلوب، وبيان سمو مكانة المؤمن في نظر الإسلام، والحرص على مشاعره.

وأما إن كان اللقب غلب عليه الاستعمال من باب الوصف ولا يُراد به العيب، فذلك لا بأس به، وهو كثير كالأعرج والأحدب والأعمش، والضابط في ذلك - والله أعلم - أن كل ما يكرهه الإنسان ويبغضه إذا نودي به فلا يجوز، وهو داخل في السخرية والإهانة، وأما إن كان مما يحبه، أو وصف اعتاد عليه فلا بأس به لأنه لا يستاء منه، بل قد يدخل السرور والفرح على قلبه.

وعلى من ارتكب مثل هذه الأخطاء أن يبادر بالتوبة؛ لأن الأصل في المؤمن إذا وقع في أي مخالفة شرعية أن يتوب منها، والآية حكمت حكماً جازماً على أولئك الذين ينالون من المؤمنين بالسخرية

(١) ينظر: المرجع السابق (٤/ ٢٢٣)، المرجع السابق (٧/ ٤١٨).

منهم ولمزهم ونبزهم، ويصرون على ما هم عليه فلم يتوبوا، فوصمتهم بالظلم والعياذ بالله(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ ينهى الله تعالى المؤمنين عن سوء الظن ويأمرهم باجتنابه، فليس للإنسـان أن يعتقد بأخيه سـوءاً ويتهمه بأمر إلا إذا انكشـف ذلك له ببينة واضحة، إذ أسرار القلوب لا يعلمها إلا علّام الغيوب.

وقد نهى الله عن سوء الظن لأنه سبيل للتقاطع والتحاسد والتباغض، وهو أوّل بوادر الشر الذي قد يجر لما هو أعظم منه من تجسس وغيبة ونميمة وغيرها، وأسلوب الآية يشير إلى الاحتراس من سوء الظن باجتناب أكثره، خشـية الوقوع في القليل المحرم منه الذي يسـتوجب العقوبة؛ لأنه مبني على الكذب والنفاق والإسـاءة إلى المؤمنين، لا على الصـدق والإخلاص والإحسـان لهم، وقد ثبت عن الرسول ﷺ قوله: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانـًا)(٢).

كما أن هذا الأسلوب نفسه يوحي بأن الظن ليس كله شراً، لأنه قال بعض الظن ولم يقل كله، فإن من الظن ما فيه احتياط لسلامة الدين والنفس والعرض والمال، ومن الظن ما يكون في استنباط الأحكام الشرعية التي لا دليل قاطعـًا على حكمها، بل هي مبنية على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد، فالأخذ بالظن في هذه الحالة لا حرج فيه، بل مأمور به، والله ﷻ يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، وقد أذن الله للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير كما قال ﷻ: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ [النور: ١٢]، فأذن لهم بقول الظن وإن لم يكونوا من قيله فيهم على يقين.

ومن هنا يتبين أن الظن المنهي عنه هو ظن السـوء بأهل الخير والصـلاح والأمانة والتقوى ومن عُرف عنهم الستر، كاتهامهم وتخوينهم ورميهم بالسوء والفحشاء دون أمارة صحيحة وسبب ظاهر،

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١١٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٩)، كتاب الأدب، باب ما ينهى من التحاسد والتدابر، برقم [٦٠٦٤]، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس، برقم [٢٥٦٣].

فهذا الظن الذي يجب اجتنابه[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ينهى الله عن تتبع المسلمين بقصد البحث عن عوراتهم ونقائصهم، والاطلاع على أسرارهم وهتك أستارهم.

والتجسس في الغالب مبني على سوء الظن، فإن من ظن بأحد من المسلمين عيباً فإن ظنه هذا يدفعه إلى التحقق فيما ظن، فيأخذ بالبحث عن العيوب والنقائص التي ظنها في الشخص المظنون به، وذلك بمراقبته وتتبع أخباره حتى يتحقق من ذلك الظن، وقد يكون الدافع له هو الفضول المحض وحب الاستطلاع، أو الإيذاء والفضيحة، وأياً كان الدافع له فهو إيذاء للمسلمين وسبب لانعدام الثقة والتنازع والتخاصم والفرقة، لذلك نهانا الله عنه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال ﷺ: (ولا تجسسوا ولا تحسسوا).

وهناك تجسس لا يدخل تحت عموم النهي، وهو التجسس على الأعداء بتتبع مخططاتهم للتصدي لها، فهذا لا بأس به لأن فيه للمسلمين مصلحة ودفع مفسدة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ينهى الله المؤمنين عن الغيبة، وهي ذكرك أخاك بما يكره في ظهر الغيب، حتى وإن كان فيه العيب، وسواء أكان العيب في دينه أو دنياه، أو خِلقته أو خُلقه، أو بيته وأهله.

وقد جاء تعريفها في حديث رسول الله ﷺ حيث قال لأصحابه: (أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: إن كان فيه ما

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٣٩٤)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ٢٨٢).

(٢) ينظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية لمجموعة من الباحثين، موقع الدرر السنية.

تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه)[1].

وهي مرتبطة في الغالب بسوء الظن والتجسس، وذلك أنه بعد أن يتحقق من وجود العيب يبدأ يذكره للناس، ومن ثم يؤدي ذلك إلى إيغار الصدور والتشاحن والتباغض وتفريق شمل الجماعات.

وقد حرم الله الغيبة ونفَّر منها بصورة مفزعة مستقذرة، تشمئز منها النفوس جميعًا، حيث شبه الله حال المغتاب بمن يأكل اللحم، لما فيه من تمزيق للأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه، وليس أي لحم!! إنما هو لحم أخ ميت، والميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه.

ولا خلاف بين العلماء أن الغيبة من الكبائر، وعلى مرتكبها أن يبادر إلى التوبة والاستغفار، أو الاستحلال ممن اغتابه[2].

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣]، تنهى هذه الآية الكريمة الناس عن العصبية الجاهلية وما فيها من التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال، والتحامق على الفقراء والسخرية بالآخرين.

فالله ﷻ جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ويتآلفوا ويتناصروا ويتعاونوا، لا ليتطاول بعضهم على بعض أو ليتصارعوا ويتقاتلوا، حيث إن مبدأ خلقهم واحد، وليس للون أو الجنس أو اللغة أو الوطن، أو الحالة الاجتماعية أو المالية من حساب في ميزان الله ﷻ حتى يتفاضلوا فيه، بل أرفع الناس مقامًا وأعلاهم منزلة عند الله ﷻ من تحقق من تقوى الله وعمل صالحًا، قال ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، برقم [٢٥٨٩].

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ٢٨٥)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٢).

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ٩٨٧)، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم [٢٥٦٤].

فالله نهاهم عن الكبر وأمرهم بالتواضع لأن فيه هدوء وسكينة ووقار واتزان، قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٥](١).

- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٦]، ينهى الله عن خلق ذميم وقع فيه الأعراب، وقد يقع فيه غيرهم، وهو الكذب وتزكية النفس وخاصة إذا كان ذلك في الدين، لأن الله قد أحاط علماً بكل شيء كما قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ٣٢]، فيجب الحذر من قول خلاف ما يعلمه الله من ضمائر الصدور حتى لا يكون ممن يستحق عقوبة الله(٢).

قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات: ١٧]. ينهى الله المسلمين أن يمنوا ويفتخروا على الرسول ﷺ بأن هداهم للإسلام دون قتال، بل المنة لله ﷻ ولرسوله ﷺ أن بلغهم وأرشدهم إلى طريق الحق وأنقذهم من الشرك والضلال.

ولعل امتنانهم دليل على ضعف إيمانهم، إذ لو كان إيمانهم صادقاً لتأدبوا مع الله ورسوله ﷺ، خاصة وأن نفع إيمانهم عائد على أنفسهم، والمن على الناس سواء كان بالكلام أو بإشعارهم بعمل عمله لهم، أمر نهى الله المؤمنين عنه فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وأوصى رسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ [المدثر:٦]، فالمؤمن يكون كريم الأخلاق، طيب النفس، يحسن لغيره دون مَنٍّ أو أذى راجياً ما عند ربه ﷻ(٣).

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (١١/ ٤٠٣)، أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٨٠٣.

المبحث الخامس

معوقات السمو بالنفس الإنسانية، وكيف عالجها الإسلام

النفس البشــرية مطبوعة على الفطرة الســليمة، لكن مع اختلاطها بالصــالح والطالح من الناس، وتلذذها بشــهوات الدنيا، تظهر عليها مجموعة من النقائص، فتتغير طبيعتها على حســب درجة تأثرها ومدى الخلل الذي أصــابها طوال فترة تمردها وبعدها عن الله تعالى، ومبارزته بالمعاصــي، ومع مرور الوقت تمثل تلك التغيرات والنقائص آفات قلبية وسلوكية تؤثر على الفرد، بل على المجتمع بأكمله.

وحتى تســمو النفس بما يرضــي الله تعالى من الطاعات والعبادات الشــرعية والأخلاق الكريمة وترتقي بها وتعلو بهمتها؛ نهى ديننا الحنيف عن كل ما من شأنه أن يمس كرامة أفراده ومجتمعه بسوء، لكنه قبل أن ينهى عن أمر أو يحرمه يرشــد إلى البديل، ويبين للمســلمين ســبل العلاج، حتى يتحقق للنفس سموها، وتتطهر من الأدناس الحسية والمعنوية، وترتدي بلباس الأخلاق والقيم الحميدة، وما من شــك أنه بقوة عزيمة الإنســان وقوة إرادته وقوة إيمانه ويقينه وتوكله على خالقه، يعالج ما أصــاب نفسه من خلل حتى يستقيم على أمر الله تعالى.

وفيما يلي أســتعرض بعضــًا من المعوقات والموانع التي تحول بين الإنســان وبين ســمو نفســه ورقيها، ثم أبين سبل علاجها بإيجاز.

أما المعوقات فمنها:

١- فســاد بيئة الإنســان والتربية الخاطئة منذ الصــغر، ومصــاحبة أصــدقاء الســوء، كما أن التقاليد والعادات السيئة قد تحول دون سمو النفس.

٢- قلة البضاعة في العلم الشرعي بالكتاب والسنة ومقاصد الشريعة، ومبادئ الدعوة إلى الله، فالجهل آفة من الآفات الخطيرة، عواقبه وخيمة؛ لأنه يســبب الظلم والفســاد، ويُقعد عن طلب المعالي، ولــذلــك الله ﷻ فرّق بين العــالِم والجــاهــل بقولــه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

٣- عدم متابعة الرسول ﷺ والبعد عن سنته، وترك قراءة سير الصالحين، وذلك مدعاة إلى الافتراق والخصومات وانحطاط المجتمعات.

٤- عدم مخالطة أهل العلم وحضور مجالس الذكر، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾[الكهف: ٢٨]، فهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، وملازمتهم تفيض على الإنسان من نور الإيمان، لما فيها من الخير العظيم والفضل الكبير.

٥- طول الأمل وعدم تذكر الموت، وهو مرض فتاك يفسد القلب ويتلف الوقت، فيُقعد صاحبه عن العمل وينسيه الأجل، ويعيش في الدنيا تائهاً بين أوهام لا حقيقة لها، وأمان لا نهاية له، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[الحديد: ١٦].

٦- تزكية الإنسان لنفسه وإطرائها والإخبار عنها ورؤيتها بأفضل مما هي عليه، أو الاغترار بتزكية الناس له وثناؤهم عليه، وهي صفة مذمومة ومدخل من مداخل الشيطان، حيث تنزل بالنفس البشرية إلى مستويات متدنية، ويجعلها ممقوتة عند الله وعند الناس، لأنها تورث في النفس عجباً وغروراً ومنًّا واستطالة، وقد نهى الله عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم:٣٢].

٧- التهاون مع النفس واتباع هواها؛ لأن من طبيعتها أنها ميَّالة إلى الدّعة والبطالة وحب الراحة، فإذا تساهل المرء مع نفسه فلن يستطيع أن يسمو بها ويرتقي لأنها أمَّارة بالسوء.

٨- ترك الإخلاص في القول والعمل واللامبالات في أداء الطاعات، وإهمال الفرائض والنوافل، وعدم تدبر القرآن، وقلة الاستغفار والذكر وترك الدعاء، مع الإصرار على المعاصي والذنوب والإخلاد إلى الشهوات والمباحات.

٩- الطمع وحب الدنيا يجعل الإنسان يتساهل في أكل حقوق الغير والكذب والزور والبهتان والمكابرة والغرور والجدال العقيم لتحقيق ما يطمع إليه.

ومن الوسائل التي يتوصل بها إلى علاج تلك المعوقات ما يلي:

١- مصاحبة أهل الفضل والعلم، وحضور مجالس الذكر، مع التزود بالعلم الشرعي لأنه سلاح المؤمن وطريقه إلى الجنة.

٢- متابعة النبي ﷺ والتمسك بسنته، وقراءة سير السلف الصالح حيث تبعث في النفس الانكسار والشعور بالتقصير.

٣- التأهب للقاء الله ﷻ، وتذكر الموت وأنه يأتي بغتة، وتذكر ما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وأهوال يوم القيامة، ذلك أن الآفات الفتاكة بقلب المسلم منشؤها طول الأمل وحب الدنيا، وذكر الموت يقطع تلك الأمراض وأسبابها، فيسلم قلب المرء من مساوئ الأخلاق وتسمو نفسه.

٤- الحذر من تزكية الإنسان لنفسه حتى لا يغتر برحمة الله تعالى، فمن الخطورة أن يغتر الإنسان بتزكية الناس له فضلاً عن تزكيته لنفسه أمام الناس، وما فيه من رياء وتصنُّع ممقوت قد يؤدي إلى إحباط العمل، ويكفي علمه أن الله يعلم سريرته وعلانيته، ولا يغره بالله الغرور، فإن رضاه بطاعته لله دليل على حماقته وجهله بحقوق العبودية، وما يستحقه الرب ﷻ، ويجب أن يعامل به، ثم إن رضى الإنسان وحسنه ظنه بنفسه يتولد منه الغرور والعجب والزهو بالنفس.

٥- محاسبة النفس ومخالفتها والإنكار عليها، وعدم تلبية رغباتها كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾[الحشر: ١٨]، فالنفس أمَّارة بالسوء داعية للراحة والعصيان، فلا بد من التضييق عليها ومنعها من شهواتها، وفطامها من لذاتها، وتوبيخها وتقريعها ومجاهدتها لرد كيد الشيطان وتلبيسه بكافة الطرق؛ لأن عداوته لا تزول أبداً، بل هو يبرر طاعة ضعاف الإيمان له في الدنيا ومعصيتهم لله إلى نفوسهم كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ

عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾[إبراهيم: ٢٢].

٦- الإخلاص لله ﷻ وتربية النفس على تنقية العمل من حظوظ النفس وشوائب الرياء، والمحافظة على الفرائض والإكثار من النوافل وتدبر القرآن، وتجديد التوبة وملازمة الاستغفار والذكر، والتحلي بالصبر واليقين، حتى ينتصر على شهوات نفسه فيحجزها عن المحرمات ويحبسها على الطاعات، مع الإكثار من الدعاء بالثبات على الطاعات والبعد عن المحرمات.

٧- العمل على تطهير نفسه من أخلاقها الرذيلة، كالرياء والعجب والشح والطمع والأمن من مكر الله، والسخرية وسوء الظن بالناس، وتحليتها بالأخلاق الحميدة الفاضلة كالإخلاص والإنابة والخوف من الله والشكر والتواضع واحترام الآخرين(١).

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٥٤٦)، مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم (١/ ١٩٢).

الخاتمــة

في الختام أحمد الله تعالى على تيسـير إتمام هذا البحث، وأسـأله سـبحانه أن يمن علينا بفهم كتابه العزيز، واتباع أحكامه وهداياته إنه قريب مجيب.

وقد ظهر لي من خلال مباحثه النتائج التالية:

١- أن علم هدايات القرآن الكريم علم واسع، ومجال مفتوح للبحث والعطاء.

٢- أن النفس هي ذات الإنسـان بأحاسـيسـه ووجدانه ومدركاته، ولا تخلو من أن تكون قد اتصـفت بواحدة من صفاتها التي وردت في القرآن الكريم، فهي إما أمارة بالسوء، أو لوَّامة، أو مطمئنة.

٣- سـورة الحجرات مدرسـة عقدية وتشـريعية وتربوية متكاملة، تربى في ضـوئها أصـحاب النبي صـلى الله عليه وسـلم، حيث جاءت مع قصـرها وقلة عدد آياتها أحكام وآداب وأوامر ونواهٍ لا نجدها مجتمعة في سورة سواها.

٤- نلمس من آيات السـورة سـمو المنهج القرآني في سـياسـة النفوس وتربيتها وإصـلاحها وتهذيبها، والتدرج بها في كلمات قليلة تؤثر في القلوب والنفوس.

٥- جاءت آيات هذه السورة لتربي الأمة على سمو الأخلاق، وفضائل الأعمال وعلو الهمم، وتنهاهم عن رذائل الأخلاق ومساوئها، وكل ما من شـأنه أن يوقع في المعصـية والعقاب، أو يسـبب الفتنة والفرقة.

٦- النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، سواء كان ذلك التقدم حسيًّا أو معنويًّا.

٧- وجوب الأدب مع النبي ﷺ في حياته وبعد مماته بالمحافظة على سنته، ويلحق في ذلك الأدب مع العلماء وتوقيرهم لأنهم ورثة الأنبياء.

٨- المنهج الشرعي الصحيح في نقل الأخبار هو التثبت قبل نقلها.

٩- أن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك ولا تمس بأي حال من الأحوال.

١٠- إن كانت الأمور التي في السـورة واجبات، فلا بد من فعلها والندم على إهمالها، وإن كانت محرمات فلا بد من هجرها وتركها والإقلاع عنها والندم على ارتكابها.

١١- أن للنفس معوقات تمنع من سـموها، ومن أهم طرق علاجها محاسـبتها ومخالفتها والإنكار عليها.

١٢- يظهر بشـكل واضـح تكرار الحديث في السـورة عن التقوى لأهميته في حياة الفرد، إذ بصـلاح القلب يصلح الجسد كله، ومن ثم ينعكس على صلاح المجتمع.

١٣- أن النفس تسمو بفعل ما أمر الله به من الطاعات، وبترك ما نهى الله عنه من المحرمات.

وأهم التوصيات ما يلي:

١ - التزود بالعلم الشرعي وطاعة الله ورسوله ﷺ، فهو السبيل للتقوى.

٢ - تربية الأبناء على العناية بتوجيهات القرآن الكريم وهداياته.

٣ - محاسبة النفس ومخالفتها والإنكار عليها؛ لأنها أمَّارة بالسوء.

٤ - المحافظة على حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات.

٥ - تطهير النفس من الأخلاق الرذيلة، وتحليتها بالأخلاق الحميدة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المصادر والمراجع

١- **الإتقان في علوم القرآن.** السيوطي، جلال الدين. تحقيق: محمد إبراهيم. بيروت، المكتبة العصرية، (د.ط)، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢- **أحكام القرآن.** ابن العربي، محمد بن عبد الله. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣- **إحياء علوم الدين.** الغزالي، أبي حامد محمد. تحقيق: عامر النجار. شركة الأمل للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت).

٤- **أسباب نزول القرآن.** الواحدي، علي بن أحمد. تحقيق: كمال زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).

٥- **الاستيعاب في بيان الأسباب.** أول موسوعة علمية حديثية محققة في أسباب نزول آي القرآن الكريم. سليم الهلالي، محمد آل نصر. الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٦- **الإصابة في تمييز الصحابة.** العسقلاني، أحمد بن حجر، تحقيق: علي البجاوي. بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٧- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.** الشنقيطي، محمد الأمين. خرَّج آياته وأحاديثه: محمد الخالدي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٨- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.** ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمد الفقي. الرياض، مكتبة المعارف، (د.ط)، (د.ت).

٩- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.** الفيروز آبادي، محمد يعقوب، تحقيق: محمد النجار، القاهرة: إحياء التراث الإسلامي، (د.ط)، (د.ت).

١٠- **البيان في عد آي القرآن.** أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد. تحقيق: غانم الحمد. الكويت: مركز المخطوطات والتراث، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١١- **البينات في تفسير سورة الحجرات**. البينوني، عبد المجيد. جدة: دار نور المكتبات، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٢- **التحرير والتنوير**. ابن عاشور، محمد الطاهر. تونس: دار التونسية (د.ط)، ١٩٨٤م.

١٣- **التعريفات**. الجرجاني، علي بن محمد. تحقيق: إبراهيم الأبياري. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٤- **تفسير القرآن العظيم**. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. قدم له: عبد القادر الأرنؤوط. الرياض، دمشق: دار السلام، دار الفيحاء، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٥- **التفسير القرآني للقرآن**. الخطيب، عبد الكريم يونس. القاهرة: دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت).

١٦- **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. الرازي، فخر الدين. بيروت: إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٧- **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**. العسقلاني، أحمد بن حجر. تحقيق: أبو عاصم حسن بن عباس، مصر: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٨- **التوقيف على مهمات التعاريف**. المناوي، محمد بن علي. القاهرة: عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٩- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: عبد الرحمن اللويحق. الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٠- **جامع البيان في تأويل القرآن**. الطبري، محمد بن جرير. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢١- **الجامع الكبير - سنن الترمذي** -. الترمذي، محمد بن عيسى. تحقيق: بشار عواد. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (د.ط)، ١٩٩٨م.

٢٢- **الجامع لأحكام القرآن**. القرطبي، محمد بن أحمد. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٣- **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء**. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمد اسكندريلدا. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢٤- **سنن أبي داود**. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل. بيروت: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٥- **السنن الكبرى**. النسائي، أحمد بن شعيب. تحقيق: حسن شلبي. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٦- **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**. الحميري، نشوان بن سعيد. تحقيق: حسين العمري، مظهر الأرياني، يوسف عبد الله. بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٧- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. الجوهري، إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عطار. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٨- **صحيح البخاري**. البخاري، محمد بن إسماعيل. تحقيق: محمد زهير. دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٩- **صحيح سنن الترمذي**.الألباني، محمد ناصر الدين. الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- **صحيح مسلم**. مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، (د.ت).

٣١- **الغريبين في القرآن والحديث**. الهروي، أبو عبيد أحمد. تحقيق: أحمد المزيدي. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٢- **الفتاوى السعدية**. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. الرياض: المؤسسة السعدية، (د.ط)، (د.ت).

٣٣- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. الزمخشري، محمود بن عمر. بيروت: دار المعرفة، (د.ط)، (د.ت).

٣٤- **لسان العرب**. ابن منظور، محمد بن مكرم. بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٣٥- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، (د.ط)، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣٦- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب. تحقيق: عبد السلام محمد. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٧- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمد البغدادي. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣٨- **المسند**. أحمد بن حنبل. مصر: مؤسسة قرطبة، (د.ط)، (د.ت).

٣٩- **معاني القرآن**. الفراء، يحيى بن زياد. تحقيق: أحمد يوسف، محمد النجار عبد الفتاح إسماعيل. القاهرة: الدار المصرية، الطبعة الأولى، (د.ت).

٤٠- **المعجم الوسيط**. مجموعة من المؤلفين. القاهرة: دار الدعوة، (د.ط)، (د.ت).

٤١- **معجم تهذيب اللغة**. الأزهري، أبو منصور محمد. تحقيق: رياض زكي. بيروت: دار المعرفة، (د.ط)، ٢٠٠١م.

٤٢- **معجم مقاييس اللغة**. ابن فارس، أحمد بن زكريا. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الفكر، (د.ط)، ١٣٩٩هـ.

٤٣- **المغني**. ابن قدامة، عبد الله المقدسي، تحقيق: عبد الله التركي، عبد الفتاح الحلو. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٤- **المفردات في غريب القرآن**. الراغب الأصفهاني. تحقيق: محمد عيتاني. بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٤٥- **الموسوعة القرآنية - خصائص السور**. جعفر شرف الدين. تحقيق: عبد العزيز التويجري. بيروت: دار التقريب، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٦- **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي**. فرج عبد القادر طه. القاهرة: (د.ن)، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.

٤٧- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. البقاعي، إبراهيم بن عمر. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د.ط)، (د.ت).

٤٨- **النهاية في غريب الحديث والأثر**. ابن الأثير، المبارك بن محمد. تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي. دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

المواقع الإلكترونية:

٤٩- الإسلام والسمو الروحي للإنسان http://www.alukah.net

٥٠- حقيقة النفس في القرآن الكريم http://www.alukah.net

٥١- قل هو من عند أنفسكم http://www.alukah.net

٥٢- موسوعة الأخلاق الإسلامية. http://www.dorar.ne

فهرس محتويات البحث

ملخص البحث ٤٩٥

مقدمــة ٤٩٧

التمهيــد ٥٠١

المطلب الأول: تعريف السمو والنفس الإنسانية ٥٠١

المطلب الثاني: أهمية تحقيق السمو بالنفس الإنسانية وآثاره ٥٠٥

المبحث الأول: بين يدي سورة الحجرات ٥٠٨

المبحث الثاني: السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع ربه ٥١٣

المبحث الثالث: السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع نبيه ٥١٦

المبحث الرابع: السمو بالنفس الإنسانية في علاقة الإنسان مع الناس ٥١٩

المبحث الخامس: معوقات السمو بالنفس الإنسانية، وكيف عالجها الإسلام ٥٢٨

الخاتمــة ٥٣٢

ثبت المصادر والمراجع ٥٣٤

فهرس محتويات البحث ٥٣٩